حنا مينه

# علبة التبغ

عندما انتهى ابراهيم من رش مادة الـ د د ت حول الحصيرة التي سينام عليها ، راقب بعناية ذلك الخط المسطيل من المادة المبيدة للحشرات الذي سيج به مرقده ، واذ لاحظ فجوة فيه عمد الى سدها ، ثم عمد ، احتياطا ، الى تكثيف ذلك الحاجز فرش المادة المبيدة مرة ثانية . وبعد ذلك خلع ثيابه ، واطفأ المصباح ، وتخطى الحاجز فاستلقى على الحصيرة وسط ظلمة الغرفة التي خفت تدريجيا، وقال في نفسه راضيا عن فعلته : « حسنا ! ظني ان ألبق اللعين لن يستطيع اختراق الحاجز الواقعي الذي أقمته من حولي » .

كان الليل في اوله ما يزال ، لكنه ملّ القعود فآثر النوم ، ومع ان هذا لا يأتي بسهولة فانه راح يحاوره بصبر ليستريح من شعور مبهظ بالوحدة ، في هذا الكوخ الخشبي الكئيب على سطح الطابق الثالث في حي الزيتونة ببيروت .

لقد فرض عليه ان يتفهم الضرورة التي الجأته الى السكن هنا وان يتعزى ، وكان العزاء ضربا من النسيان الصعب ، فتعلم ان يمارسه بنجاح . ان عليه ان يتقبل الواقع بطريقة لا تكرسه بل تحتمله بغية تغييره ، وقد فهم ذلك واتخذه سلوكا ، وعلى اساسه اقام في هذا الكوخ لصاحبته السيدة زكية مالكة البيت بطوابقه الثلاثة : الاول وفيه بعض الحوانيت ، يعمل ابنها حلاقا في احدها ، والطابق الثاني تؤجره غرفا مفروشة لطلاب الجامعة ، والثالث تسكنه مع زوجها وابنها الحلاق وابنتها العانس وابنتها الاخرى المتزوجة .

ان السيدة زكية تمارس كل شعور السيدة صاحبة الملك ، وفوقه الاحساس بان البيت الذي ورثت طابقه الارضي عن اهلها قد تطلب منها زهرة عمرها حتى استطاعت بناء طابقيه الاخرين . لكن الذي يطامن من وحدة شعورها بالملكية هو وضعها الاقرب الى العوز الدائم ، واضطرارها الى الافادة من كل زاوية في بيتها ، وكذلك اضطرارها الى الشجار ، أو عدم التلؤم على الاقل ، مع كل ساكنيه ، اما لاختلاف على الاجر ، او ضيقا بالذين لا يعملون مثل زوجها ، او الذين عليها ان تحتملهم مثل صهرها « عديم الوجدان » .

وحين جاءها ابراهيم يطلب غرفة للايجار ، اعلنته ان ليس لديها غرف فارغة في الوقت الحاضر ، مع الوعد بان غرفة ستخلى بعد أيام ، يمكنه ان يسكن فيها ، اذا اتفقا على الاجر .

قال ابراهيم :

ـ لكنني لا أستطيع الانتظار ، فليس لي مكان ابيت فيه .

ـ يمكنك ان تنزل في أحد الفنادق لبضعة ايام .

ـ لم أجد غرفة في فندق مناسب .

ـ ستجد اذا بحثت اكثر .. هناك فنادق رخيصة حول البرج .

ـ لا تطيب لي السكن في مثل هذه الفنادق .. اعصابي لا تحتمل الضجيج ..

ـ والفنادق الاخرى ؟

ـ اسعارها لا تناسبني .

قالت السيدة زكية في نبرة أسف :

ـ لا حيلة في اليد .. اذا لم تنتظر بضعة أيام فلن تحصل على غرفة عندي .. مع انني لا ارفض ، بل قل انني ارغب في تأجيرك احدى غرفي .

ساد الصمت دقيقة بينهما ، بدا كل منهما يفكر في حل ، وكل منهما يخفي الحقيقة عن الاخر .

هو لا يستطيع النزول في الفنادق ، لانهم يطلبون فيها هويته ، ولاسباب خاصة به ، لا يريد أن تكون اقامته معروفة من رجال الامن ، وليس ذلك لانه مطلوب في لبنان ، بل لانه قد يطلب من قبل سورية، فهو صحفي اغلق حسني الزعيم ، غداة انقلابه عام ١٩٤٩ ، الصحيفة التي يعمل فيها ، وسجن صاحبها ولاحق محرريها ، وهو واحد منهم.

وهي ، السيدة زكية ، تميل الى تأجيره لانه ليس من فئة الطلاب . ان لديها ابنة للزواج ، وخاطبها قد يكون بين المستأجرين ، ولامر ما توسمت في ابراهيم خيرا ، ورغبت في ان يسكن لديها لو توفرت الغرفة .

قال ابراهيم في شيء من ضراعة زادت في آمال السيدة زكية واطمعتها :

ـ الا يمكن ان ادبر نفسي عندك خلال ايام ريثما تفرغ الغرفة ؟

ـ كيف ؟ اقول لك لا توجد غرفة الان .

ـ انام في الصالون .

ـ لا يوجد سرير في الصالون .. والمستأجرون لا يقبلون فوق ذلك .

طراوة لهجة السيدة شجعته على الالحاح :

ـ الدنيا صيف .. ويمكنني النوم كيفما تيسر ..

ـ آسفة .. ليس في البيت مكان غير مشغول سوى السطح .. هناك غرفة غسيل .

ـ غرفة غسيل !؟

ضحك للمفارقة ، بينما السيدة تمسح كفا بكف ، مؤكدة ان هذا كل ما في وسعها ، لكن ابراهيم سرعان ما اعطى انطباعا بان العرض ـ على عدم معقوليته ـ يمكن ان يصير معقولا امام الرغبة المشتركة ، فالتقطت السيدة ذلك لتبتسم مشجعه ، وهي تقول :

ـ عدم المؤاخذة .. الغرفة بساكنها .. قد لا تكون صالحـــة ، ولكنها ليست سيئة .. كنت افكر منذ مدة بتجهيزها ، ثم صرفت النظر .. فاذا كنت مضطرا يمكن ان تقيم فيها بضعة ايام .. بضعة ايام فقط ..

قـال ابراهيم :

ـ انا مضطر فعلا .. ولكن ليس الى درجة الاقامة في غرفة غسيل ..

وقال في نفسه : « قد تلائمني هذه الغرفة اكثر من سواهـا ، فهي معزولة ، ومستقلة على السطح ، وستجنبني مخالطة الاخريـن او الدخول في احاديث معهم .. ثم ان كراءها زهيـد ولا شك ، وهذا مهم في مثل وضعي » .

قالت السيدة :

ـ فكر في الموضوع .. راحتك اولا .

قال ابراهيم :

ـ في غرفة كهذه لا مجال للكلام على الراحة .. غير ان الضرورة تجعلني اقبل ان اراها ، خاصة ان غرفة اخرى ستخلى بعد أيام كما تقولين ..

صعدا الى السطح .. وعلى طرف منه ، من جهة البحر ، كانت غرفة خشبية مستطيلة تقبع في رثاثة بالغة ، فقالت السيدة وهـي تشير اليها من بعيد :

ـ هذه هي .. مظهرها لا يجعل النفس ترتاح اليها ، ولكنهـا ملائمة من الداخل .

اعترض ابراهيم وهو يقف في الباب :

ـ ملائمة ؟ انها خم دجاج .. وهذه الرائحة ؟

ـ اين الرائحة ؟ ثم ماذا تتوقع من غرفة مغلقة ؟ قلت لك سأرتبها، وعندئذ تشعر بالفارق ..

اضافت بلهجة انتصار ، كأنما تكتشف غرفتها اكتشافا :

ـ انظر الى هذا السطح .. تستطيع التجول فيه كيفما شئت.. وقد لا تكون بحاجة ، لان غرفتك تطل على الحي كله ، وتهب عليهـا النسمات من كل الاطراف ، وفي الامسيات يحلو الجلوس امامها ، ومن النافذة ينكشف البحر ، ومن كل جهاتها تتبدى للعين مناظر فاتنة : خضرة الحدائق ، جمال القصور ، حركة الشوارع ، مرور النـاس الذي لا ينقطع .

ـ ولكنها مزدحمة باشياء عتيقة .

ـ سأخليها من الاشياء التي لا تريدها .. لن ابقي فيها سـوى الخوان الذي تنام عليه ، وطاولة وكرسيين ، وبعض الاغراض فـي الزاوية .. انت لا تحتاج الى اكثر من هذا .. واذا احتجت اي شيء اطلبه مني ..

ـ والمنتفعات ؟

ـ في الطابق الثالث .. عندنا ..

ـ في الطابق الثالث ؟

ـ وماذا في ذلك !؟ انت لن تطبخ ولن تنفخ .. وما تبقى سهل.. يمكنك ان تستخدم منتفعاتنا . لا تتحرج ، ارجوك .

استسلم ابراهيم للسيدة زكية . رغب في ان يبدي الامتعاض ، لكنه كان قد اقتنع ان ذلك لا يقدم ولا يؤخر . واختصارا للحديث سأل عن الاجرة ، ودفع عن شهر كامل مقدما ، معطيا موافقة ضمنية على الاقامة بصورة دائمة .

هذا اراح السيدة زكية . عرفت انها عقدت صفقة طيبة،وطمحت الى ما هو أبعد ، فعملت على ترتيب الغرفة بجد ، ولم تبق فيهـا الا على الخوان القديم ذي الفراش والوسائد المحشوة بنشـــارة الخشب ، وثلاثة مقاعد وطاولة ، وركمت في الزاوية بعض الاواني العتيقة وانواعا من الزجاج ، وبرميل توتياء لتسخين الماء وطستا كبيرا للغسيل وادوات مماثلة .

***

كان ذلك في اوائل الصيف ، وقد وجد ابراهيم الغرفة سيئـة جدا ، لكن اجرها الضئيل نسبيا ، واستقلالها عن البيـــت كله ، وانفراده فيها ، وتخلصه من اطلاع الاخرين على ماكله ومشربه وحياته الداخلية ، عوضه عن سوئها ، فقرر بينه وبين نفسه ان يقيم فيها ، الى ان يتيسر له الرجوع الى بلده .

وضع برنامجا اوليا لحياته خلال النهار . كان عليه قبل كل شيء ان يستيقظ باكرا لينزل الى الطابق الثالث فيستخدم المنتفعات قبل ان تكون السيدة زكية وعائلتها قد استيقظت . كذلك كان عليه ان يملأ كوز الماء ويضعه في الزاوية الظليلة من غرفته ، ثم ينزل الى المدينة فيبتاع الخبز والجبن وبعض المعلبات والصحف . الـــكتب يشتريها من على الارصفة ، حيث تعرض العتيقة منها باسعار بخسة. ان عليه ان يقرأ ، وهذا وحده يملأ فراغ يومه ويخفف ضغط الملل الذي سيستشعره في تفرده غير السامي على السطح . وقـــرب الظهيرة ينزل الى السوق . يقضي في البرج حاجاته . يدخل في روع الذين يســـكن عندهم انه تغدى في احد المطاعم ، ويعـود فيصعـد الى غرفته على الدرج الخشبي الوصل من الطابق الثالث الى السطح.

لقد استمتع ، في الليلة الاولى من مبيته باكتشافات رائعة فيما حوله . كان البحر الازرق الرحب في النهار قد انقلب الى بحيـــرة لالاءة تنعكس فيها حزمات ضوئية تستطيل مع المدى في خطوط سهمية عريضة في البدايات مروسة في النهايات . وكانت خطوط الضـوء تتقاطع ، وتتراقص ، وتنتشر متبعثرة او متجمعة . ومن هذه الاضواء يستدل على ضخامة الابنية المطلة على البحر ، وما فيها من حركـــة تمتصها ضجة النهار . لا شك ان الزيتونة هي المجمع الرئيســـي للاهي المدينة ، بدليل هذه الموسيقى الصادحة في كل جوانبها . موسيقى راقصة ، وموسيقى شرقية ، وغناء واصوات تظل الى ساعة متاخرة من الليل .

وكانت الطرقات الرئيسية والفرعية ، تعج بالسيارات والمارة ، ومن المسلي متابعتها ومراقبتها من النافذة او السطح . وكان الاصيل ، ونسماته الرهوة الطرية ، وغروب الشمس على البحر،والابنية المجاورة التي تظهر انماط مختلفة للناس عبر نوافذها المضاءة ، وعـلى شرفها، تشـــكل لوحة شديدة الحيوية ومسلية جدا .

ما ازعجه كان يوم السبت . فيه تستيقظ السيدة زكية وابنتاها باكرا لاجل الغسيل . وكان يعتبر من اللياقة ان يغض طرفه عنهـــن حتى وهو يلقي تحيـة الصباح في طريقه الى المرحاض او المغسلة .

وهذا الراي الذي اتخذ لديه صفة القناعة ، كان قديما ، وقد اربكه ، حتى انه ، في بعض السبـوت ، كان يغسل وجهه فـي غرفته ، وينزل الى المرحاض العمومي في البرج ليقضي حاجته ، ويغلق باب غرفته عليه ، كيلا يرى نساء البيوت وهن ينشرن الغسيل ويجمعنه ظهرا ومساء .

ثم ان ازعاجا اخر كان يستشعره من جراء اضطراره الى عبور صالون الطابق الثالث ، ليصعد الدرج الخشبي الى السطح . كـان المرور عبر الصالون عذابا حقيقيا بالنسبة اليه ، لانه يلقى ثمة اهل البيت ، فيكون عليه ان يحييهم ، وبسبب من الحاح السيدة زكية ، يجالسهم احيانا ، ويشرب القهوة معهم ، ويدخل في احاديث يحاول اقتضابها ما امكن . غير ان اهل البيت كانوا يفيضون في احاديثهم ، وبغير حرج يتكلمون على مشاكلهم الخاصة ، ويحملونه على الاصغـاء

والمشاركة ، وكثيرا ما طلبوا رأيه في المسائل المعروضة فيحاول ان يتملص ، او يعطي اجوبة عامة ، وقد يعتذر وينسحب الى غرفته على السطح ، شاعرا بالراحة وهو بين جدرانها .

لقد علم من الام اشياء كثيرة عن الاسرة . كانت السيدة لا تحب زوجها ولا صهرها ، وترى الى ابنتها العزباء مخلوقا جديرا بالرأفة والرعاية ، وهي تحمل هم مستقبلها حملا جديا . وكان مصير الاسرة كله مرتبطا بالسيدة زكية ، هذه التي لا تفتأ تشكو على نحو موصول .

الاب قصير ، اشعث ، يملأ وجهه نمش وبقع بنية مما يطفو على الجلد عند تقدم العمر . وهو يعتمر قبعة عتيقة حوافيها مدلاة الى تحت كأنها صحن على رأسه لانعدام الكسرة التي في قبتها ، او عدم اهتمامه بها عندما يلبسها . وبنطاله قديم ، لم يعرف الكي منذ زمن بعيد ، وسترته مجعدة الياقة متسخة عند القذال ، وربطة عنقه مثل بنطاله ، حائلة اللون ، ملتفة على بعضها ، معقودة في رقبته كيفما اتفق . وكان يقوم في البيت بدور الخادم ، وينظر اليه الجميع على هذا الاساس ، ومن المشكوك فيه ان يكون قد عرف فراش السيدة زكية منذ زمن طويل ، ولولا انه نافع لهذا الدور الذي يلعبه مستسلما مغلوبا على امره ، لاطرحته الاسرة من الحساب وركنته في غرفة الغسيل مع الاشياء البالية التي لا لزوم لها . وعبثا حاول ابراهيم ، خلال الاوقات التي جالسه فيها ، او التقاه على الطرق او على السطح ، ان يخمن الوضع الجسدي الذي كان عليه ايام الشباب ، كان منظره يوحي بانه شب على هذا الشكل ، وفي الكهولة ازداد قصرا ليس الا ، ومن الاسرار التي تحتفظ بها العائلة لنفسها ، او تتجنب السيدة زكية الكلام عليها ، كيف وأين ولماذا تزوجت هذا الرجل ، وما هو الدافع الذي اغراها او اضطرها الى القبول به ، هي التي لا تزال ، برغم الكهولة ، تحتفظ باثار ملاحة ، وكان لها، في صباها ، جمال اورثته ابنتها المتزوجة ، وابنها الحلاق ، اما ابنتها العزباء فقد جاءت على شكل والدها ، مع بعض التعديل الذي تفسده عنوستها كلما تقدم بها العمر .

وكان صهرها فيليب على صورة شاب اصطناعي مما يعرض كموديل في واجهات المخازن الكبرى . انه اشبه بلعبة كبيرة متناسقة التقاطيع، حسنة التكوين ، بغير روح . كان يعنى بلباسه عنايته بمتابعة اخبار سباق الخيل ، ويبتسم ، كما يتحدث باعتدال ، في جلسته المتانية التي يخاف فيها على كية بنطاله ، ويحرص على الا تلحق بسترته ذرة غبار ، لذلك ينقف بسبابته وابهامه على كتف السترة لازالة ما يكون قد علق بها ، وتتكرر حركته هذه بحكم العادة .

ولانه موظف صغير ، في دائرة ما ، كان يواظب على وظيفته بغير انقطاع ، وبعد الغداء ينام الى العصر ، ثم يتأنق ويذهب ، شأنه شأن أي مستأجر ، لا يعنيه امر البيت . وأيام الآحاد يكرر احاديثه عن السبق والخيول ، ويحلم بربح مبلغ كبير ، ولا يؤرقه ، كما يبدو ، ان الحظ يخونه كل مرة ، وان الربح المتوقع سراب ، ولا يقلقه ان العائلة ، بما فيها زوجه ، لا تنطوي على ايما مودة له ، وعلاقته بها تفتقر الى الحرارة التي تكون بين زوجين شابين ، والى الاعتبار اللازم له من اهل الزوجة بصفته رجلا في البيت ، وحتى الامتعاض الذي يظهرونه له لا يعطي اي رد فعل من قبله .

ولقد قيض لابراهيم ، خلال اقامته في غرفة الغسيل على السطح، ان يقص شعره عند الابن الحلاق ، مراعاة لخاطر السيدة زكية ، فكان يطلع في دكانه ، من خلال الصور واحاديث الابن ، على اخر أخبار الممثلين والممثلات في هوليود . كانت كاترين هيبورن ممثلته المفضلة ، وقائمة افلام الاسبوع محفوظة لديه كما لو في نشرة او مجلة سينمائية ، وكان ينصح ابراهيم بان يرى هذا الفيلم او ذاك ، ويتكلم على كل ذلك بحماسة تفوق حماسته لعمله ، وفي الاصائل يجتمع امام دكانه بعض فتيان الحي ، وتمر البنات وتكثر التعليقات ، وفي الليالي تسمع عربدتهم في خمارة مجاورة ، ويكثر تجوالهم في الامسيات ، مطاردين الفتيات ، مغنين باصوات ناشزة ، بالفرنسية غالبا .

اما دخله من الدكان فكان ينفقه على لباسه وهواياته السينمائية وتردده على ملاهي الزيتونة التي يعرف برامجها والوجوه الجديدة من الارتيستات في كل منها .

الام وحدها ، السيدة زكية ، ترفع هموم البيت على كتفيها ، وتنوء تحتها كمن يرفع صندوقا ثقيلا ويصعد به درجا عاليا ، نحيلة، وسيمة الوجه على بروز في الوجنتين ، ممسوحه الصدر ، رقيقة العنق ، وشعرها الخرنوبي قد غزاه الشيب ، لكنها لا تعنى بصبغه. ومع كل طيبتها التي تتجلى بلطفها ـ على خلاف مؤجرات الغرف ـ لا تنقطع عن الشكوى من الزمان والزوج والصهر ومتاعب المستأجرين.

ابنتاها فقط كانتا موضع حبها وايثارها ، لا تشكو منهما ، لا ترى اي نقص او شائبة في سلوكهما ، وتجعل محدثها يستشعر ، حتى بدون ان تقول ذلك ، ان حظهما سيء كحظها ، وانها تشفق عليهما ، وتتمنى ، بل وتبحث ، عن السعادة لهما ، دون ان توفق الى ذلك ، ودون ان تعرف السبيل اليه .

وكان ابراهيم قد رأى البنت المتزوجة على السطح ، خلال نشر الغسيل او جمعه ، وفي الامسيات حين تصعد مع طفليها ، البنت والصبي الاصغر ، الى السطح للنزهة وليلعب الطفلان قليلا تحت اشرافها . كان ينسحب الى غرفته اذا ما صعدت ، ويتراجع عن الباب ويواريه تجنبا للحرج او المضايقة . لكنه لا يستطيع من داخل الغرفة الا ان يرى اليها ويعجب بجمالها ، فهي مربوعة ، ممتلئة الجسم في غير سمنة ، مدورة الوجه على بياض عاجي ، ذات شعر اسود وعينين واسعتين يرقد في اعماقها نداء مبهم ، ورغبات مكبوتة .

واذ يرى ساعديها العاريين ، وما يشف عنه فستانها الحريري الصيفي من تقاطيع الجسم ، يجاهد ليتنزع نفسه من موقفه ، ويتراجع الى قاع الغرفة ، او يتمدد على الخوان ، قاسرا نفسه على تجاهلها، رافضا باصرار ان تقوم بينه وبينها اي صلة ، تكي لا يشجعها ذلك على الدخول معه في حديث ، يجر الى استفسارات حول وضعه وسبب اقامته منعزلا ، عاطلا عن العمل .

أما البنت الاخرى ، العزباء ، الصورة المنقحة عن دمامة والدها ، فقد كانت مثار اشفاقه ، لكنها لم تكن تحظى منه بأي اهتمام ، وحتى لو بادلها التحية فانه كان يفعل وبصره مطرق في الارض ، واذا ما صعدت الى السطح ، انزوى في غرفته حتى يسمع وقع خطاها هابطة على السلم الخشبي .

هكذا طوال شهرين ، ظل ابراهيم لغزا بالنسبة لهذه العائلة، وقد اخفقت كل محاولات السيدة زكية في جعله يختلط بهم ، وعندما دعته ، ذات يوم ، الى حفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلاد حفيدتها شكرها بحرارة ، وحمل معه هدية لائقة من السوق ، قدمها الى الجدة ، وتغيب عن البيت عمدا ، فلم يرجع الا بعد الحفلة بوقت طويل ، متذرعا بشغل طارىء اضطره الى التغيب .

ولارضاء السيدة زكية ، كان يحمل ، من حين لاخر ، بعض الهدايا الصغيرة اليها ، كما كان يدفع اجر الغرفة في موعده ، بينما يماطل المستأجرون الاخرون اياما ، وقد يؤجلون الدفع من شهر لشهر ، ويعيشون في البيت ، مكثرين من الطلبات والمداخلات ، ويقيمون السهرات ويكثرون من استقبال الزوار من زملائهم ، وتضطر السيدة زكية الى المراقبة جيدا ، كيلا يأتوا بالفتيات او النساء الى غرفهم ، هذا الذي لا تسمح به أبدا .

لكل هذه الاسباب ، ولان ابراهيم ارتضى الاقامة في غرفة الغسيل على السطح بغير تذمر ، ولم يتقدم يوما بطلب او تند عنه شكوى ، فقد اعتبرته مستأجرا مثاليا . وقد زاد من اعجابها

انه لا يستخدم المنتفعات الا في حالات الضرورة القصوى ، واذ يمر بالصالون صاعدا الدرج الخشبي الى غرفته يمرق كطيف ، لا يحدق في الغرف ، ولا يتلفت الى الجالسين في الصالون ، وبصوت مهذب ، هامس ، يلقي التحية على من يجدهم ويتابع طريقه ، حتى قالت له السيدة زكية ذات يوم « يا الهي لماذا كل هذا الخجل والانطواء ؟ » وقالت له في يوم اخر « انت حساس الى درجة تخشى معها ان تنزعج الارض التي تدوس عليها » وكان هو يبتسم شاكرا ، معرضا عن الحديث الذي احس برغبة السيدة زكية في ان تفتحه معه .

ولقد فوجيء ذات ضحى ، ان السيدة زكية صعدت اليه حاملة الركوة وفنجانين ، ودعته الى تناول القهوة معها ، لانها تحس بضيق، ورحابة المناظر على السطح تفتح النفس ، والطراوة ، في فيء الدالية، منعشة ، وكان هو ، كعادته في مثل هذا الوقت ، يستلقي على اسمنت السطح ، تحت تلك الدالية ، ويقرأ في كتاب ، او يلاحق رفاق الغيوم ، في تشكيلاتها البديعة ، على صفحة السماء الساحلية ، القائمة بفعل شحنة الحر التي تحملها وتصبها على الارض عندما ترتفع الشمس وتسطح متوهجة في الظهيرة .

شربا القهوة برشفات متانية ، وطوال الوقت ظلت نظراته معلقة بشفتي صاحبة البيت . قال في نفسه : « هذه الزيارة الصباحية ليست لوجه الطراوة او المناظر التي يتكشف عنها السطح . هناك كلام على لسان جارتي ، تداربه ، تمهد له ، تتعمد ان يكون عرضا، مساقا بالحديث العام ، او متفرعا عنه » وقالت السيدة في نفسها « لا ينبغي أن يشعر انني صعدت اليه بالقهوة بهدف طرح موضوع معين . السر الذي يحتفظ به لنفسه سيكون عسيرا علي انتزاعه او الاطلاع عليه اذا استشعر رغبة متعمدة في ذلك .. لنتكلم في العموميات .. عن رأيه في الغرفة ، راحته فيها . ما يحتاجه .. ولافتح له صدري ، حتى أشجعه واغريه بان يفتح صدره لي » .

طفقت تتحدث عن اسرتها . زوجها الذي لا يصلح لشيء ، ولم تعرف الهناء معه ، صهرها البليد الذي ينفق دخله على اناقته وسباق الخيل ، ابنها الطائش ، المبذر ، ابنتها المتزوجة المظلومة التي لم تستمتع بشبابها ، والتي لم تعرف الحب ، لانها زوجتها صغيرة ، وفرضت عليها الزوج الكسول فرضا ، وهي ، الجميلة ، كانت جديرة باحسن الازواج ، ولكن الحظ ..

بغتة سالته وهي تتنهد :

ــ اليست جميلة ؟

أومأ برأسه نعم ، وقال بكياسة :

ــ جميلة من غير شك .

« جميلة الى حد لعين ، مغر .. وليس جمالها مقصورا على وجهها ، هذا البدري في استدارته ونقائه ، بل ان جسمها ، هذا المكتنز ، الملفوف ، الصارخ بنداء الشهوة الحبيسة ، غير المرتوية ، يزيد في جمالها » .

وقالت السيدة :

ــ نعم جميلة .. الكل يشهد بذلك ، الكل يراه .. الا زوجها البليد ، وهي العاقلة ، الخجولة لا تعرف سوى البيت ، ونزهتها الوحيدة على السطح .. وانت ..

« نزهتها الوحيدة على السطح ؟ وانا ؟ ماذا علي ان افعل انا ؟ هل تشكو لانني اتهرب منها ؟ وهل تصعد لاجلي ؟ كي تراني ؟ وهل هذا عرض للاقاتها ومحادثتها .. وبعدئذ ؟ تاتي الي صباحا ، والبيت فارغ ، وغرفتي لا يطرقها احد .. ؟ ؟ »

راح في خيال نشيط ، محروم ، يتابع المشهد ، بينما الام تتابع الحديث .. كان يسمع ولا يسمع . لا يعي ما تقول .. يتصور البنت ، وقد وافته في مثل هذا الوقت ، وضمتهما الغرفة ، والباب مقفل .. وعارية تصير شيئا فشيئا ، تلك الجميلة المربوعة ، ذات الصدر الناهد ، والجسم المكتنز ، الفض ، ثم تصبح له ومعه على الخوان ..

تنبه على صوت السيدة زكية يسأل :

ــ ستطول اقامتك عندنا ؟

ــ لا ادري .. كل ما في الامر انني مرتاح ، وهذه الغرفة ، على السطح .. والمناظر ..

ــ ولا تريد ان تسكن احدى الغرف في الطابق الثاني اذا فرغت . . ؟

ــ ربما أفعل .. ولكن غرفتي لا تضايقني .. احب الانفراد ، هكذا ..

ــ وفي الشتاء ؟

ــ نحن في اوائل الصيف ..

ــ ولكن على المرء ان يحسب ..

ــ من طبعي الا احسب .. الشتاء بعيد بعد ..

ــ مهما يكن .. اذا فرغت ولم تاخذها فقد لا تفرغ اخرى .. تضييع الفرصة .

ــ لا تقلقي بشاني ..

ــ ولكن أنت .. الا تقلق من هذه الناحية ؟ تذكر ان هذا حي الزيتونة ، والطلاب يرغبون الاقامة فيه .. انه افضل احياء بيروت ..

ــ اعرف ..

قالت السيدة زكية وقد ساد الصمت دون ان تتوصل الى شيء :

ــ لك أهل ؟

ــ نعم ..

ــ ام وأب واخوة ؟

ــ ام واب واخوات فقط .. انا وحيد العائلة ..

ــ ولماذا تركتهم ؟

ــ اختلفت معهم

ــ على مال ؟

ــ على قضية عائلية ..

ــ وتنوي الاقامة في بيروت ؟

ــ لم اقرر بعد .

ــ تستطيع ان تعتبرنا كأهل ..

ــ شكرا ..

ــ ويمكنك انتطلب اي شيء تحتاجه .

ــ عندما احتاج الى شيء اطلبه ..

ــ ولكنك لا تطلب .. هل يعقل انك لم تحتج شيئا طوال هذه المدة ؟ المستاجرون الاخرون يدخلون بطلب ويخرجون باخر .. الوحيد الذي لا يطلب شيئا هو انت ، والوحيدالذي يرفض الاختلاطبنا اوالسهر معنا هو انت .. صحيح اننا لا نرحب كثيرا برفع الكلفة مع المستاجرين ، وتقتصر علاقتنا بهم على ترتيب غرفهم وتنظيفها ، ولكن يحدث ان تراهم بيننا ، وان يسهر احدهم عندنا ، او نتبادل الاحاديث في اوقات الفراغ .. الوحدة صعبة .. كيف تقضي وقتك وحيدا ؟ الا تضجر ؟

كان ابراهيم قد تمدد على اسمنت السطح ، متكئا على يده اليمنى في وضع جانبي ، يحدق في السماء بنوع من ذهول ، ملولا ، سئما راغبا عن استمرار الحديث الذي طال . ولم يكن في السماء ما يلفته . بدت هي الاخرى ملولا ، ساكنة في لا مبالاة ، عالية ، تتضوى بالشمس ، وتعكس قبتها لونا طحينيا فاتحا ، لا يحجب ولا يشف ، والنور فضاء واسع ، وعبره تنداح المشاعر والافكار ، فيمتصها كما الدخان المتصاعد من السفن في الميناء ، ويحيلها الى هباء ..

كان يجاهد ضد هذه الصيرورة الهبائية لمشاعره وقواه . ذات يوم،

في بيت أهله ، حاول اصلاح اطار لوحة قديمة . كان خشب الاطار نخرا ، عتيقة ، وكان والده قد عثر على اللوحة لا يدري أين ، فلما فتحها لاستخراج الصورة ، تفتت الحرير المرسومة عليه لمجرد انه مسها . لقد بليت لانها تأطرت بين زجاج وخشب زمنا طويلا . وقال في نفسه : « الاحتباس والعطالة وانا بينهما ! قد اكون حريرا .. الحرير نفسه ، على متانته ، اذا لم يشم الهواء يبلى ويفتت . لست في ملاسة الحرير ولا قوته . ان ينقطع الانسان عن الناس ، عن الحركة والفعل ، عن المشاركة ، ماذا يصير اليه ؟ يتعطل ، يشيخ ، والعمر ، في هذه الحال ، لا يحسب بالسنين . الشباب يشيخ . شاب شيخ ، منخور كاطار اللوحة ، متفتت كحريرها، تستهلكه الحسرة ».

قالت السيدة زكية قاطعة عليه سدوره في فراغ الفضاء من حوله:

– انت لست مستاء من الاقامة في غرفة الغسيل اذن ؟

– ليس تماما .. انت تعرفين انها ليست مسكنا . ولكنني قنوع ، لا شكوى لي ، في الوقت الحاضر ..

– وأهلك ؟

– لا يعرفون عني شيئا ..

– ربما كانوا يبحثون عنك .. وماذا سيكون حالهم اذا لم يهتدوا اليك ، او اذا وجدوك وانت في هذا الوضع ؟

– اهلي لا يبحثون عني ..

– نفضوا يدهم منك ؟

– هذا ما اعتقده ..

– انت حر اذن .. تستطيع ان تتصرف .. تشتغل مثلا او تتزوج .. ؟

– تماما . .

– ولماذا لا تفعل ؟ ما هو شغلك في الاصل ؟

– لا شغل لي .. لا احب الشغل ..

– انت تمزح .. هذه نكتة .

– انا لا امزح ولا انكت .. عشت دائما هكذا : كسولا ، بليدا ، استلقي واحدق في السقف مثل تنابلة السلطان ..

– لا أصدق ..

– صدقي ..

انقطع الحديث لحظة بينهما . تفرعت قناة جانبية لتفكير السيدة زكية ، ستعمل على جعلها قناة رئيسية بحكم خبرتها . غير ان خبرة السيدة زكية ، في المجال الذي تفرع اليه تفكيرها كانت ضئيلة وساذجة ، وكان ابراهيم قد استشف ذلك من حركاتها ، هي المهزولة، البائسة ، المضطربة ابدا ، كسفينة جانحة لا يعرف ربانها تعويمها.

في تلك الفترة من النهار تكون الاسطحة فارغة . بين الحين والاخر تصعد امراة او فتاة الى سطح مجاور لتنشر غسيلا او تضع متاعا غير قابل للاستعمال بعد ، او تقطف بعض اوراق العنب ، ومن النوافذ المجاورة لبيوت حي الزيتونة الفخم والمشبوه ، تنفض سجادة صغيرة ، تكنس حافة نافذة ، او يمسح زجاج . وقد تخرج امرأة افاقت عند الظهيرة لانها كانت تعمل في احدى علب الليل ، او تقامر في احد البيوت ، فهي مخمورة او متعبة ، وكالسمكة الموشكة على الاختناق تعب النسمات الشحيحة ، وقد تعصر جبينها وهي تتناول قهوتها على الشرفة .

كان يحلو له ان يتابع هذه المشاهد من متكأ التنابلة الذي اتخذه تحت العريشة وفوق اسمنت السطح ، ويدع نفسه تحوم حول تلك الشرفات وصاحباتها واجوائهن ولياليهن في رحلة شرود عابثة وسنانة، صامتة في كل حال .

قالت السيدة زكية لتخرجه من هذه الحال :

– بنتي ماغي ..

فرنا اليها متسائلا بغير كلام ..

– اقول بنتي ماغي ..

– ما بها ؟

– حظها قليل المسكينة ..

قال في نفسه : « اللعنة على الحظ » ثم اضاف : « قبح ماغي، يا سيدة زكية ، لا حظها هو السبب » وفكر : « ما ذنب ماغي اذا كانت قبيحة ؟ لماذا ياتي احدنا الى هذه الدنيا جميلا والاخر قبيحا ؟».

عادت السيدة زكية الى النواح :

– ماغي بنت طيبة ، لكنها قليلة الحظ ، قلبها مثل قلبي ، وحظها مثل حظي ..

فقال في نفسه : « وشكلها مثل شكل والدها ! »

– تصور انها تقبل بزبال لو تقدم طالبا يدها ..

حملق فيها ابراهيم بنظرة انبغات متسائلة . تولاه احساس بالبرودة كمن تسقط عليه زخة ماء وهو يجتاز الشارع . ان ادخال سيخ من الحديد في الخد لاخراجه من الخد الاخر يصبح مالوفا مع التمرين . عليه ان يتمرن على اسياخ الهواء المتسمر بكلمات السيدة زكية على وجهه وعنقه . ربما كانت طيبة او خبيثة ، لكنها ، في كل حال ، تقدم عرضا : ابنتها تقبل بزبال لو تقدم طالبا يدها.. « انت اقل من زبال في نظرها ، ثم انت اقل من زبال في نظر نفسك . الزبال يعمل وانت عاطل .. انت تعمل لاجل المستقبل وهذا ما لا تعرفه،هي ،ولن تقول لها .ثم ما النفع من قوله ؟ هل العمل لاجل المستقبل عمل فينظرها؟ الشهادة نفسها تظل مسحوبة على المستقبل ومتوقفة على الاعتراف بك شهيدا . آنذاك لا تتوقع ان تعامل بتكرمة من الذين يرون العمل للمستقبل لاعمل ، دع عنك هذا التفكير ، وسياتي يوم تجد فيه صورتك في عيون عامل ما ، فلاح ما ، بائع كعك ، امرأة غسالة ، وفتيات من الذين يكدحون ويعملون للمستقبل مثلك . هؤلاء سيبسمون لك ، وسيظلون ، في كل الاحوال ، يرون قبضتك مرفوعة فوق حقول القمح ، وزندك مع زنودهم في دفع الالات التي تتقوص ظهورهم وهم ينحنون عليها » .

– ماغي بنت عاقلة ، وستكون لها حصة من هذا البيت .. وهي متواضعة لا تطلب سوى السترة .. لو طلبها ماسح أحذية . .

« الموت قريب بعيد ، يا سيدة زكية ، وقد تعيشين طويلا ، فما خوفك على ماغي ان تبقى عانسا بعدك ؟ انا افهم قلب الام ، لهفته ، شعوره بالذنب تجاه فلذة قبيحة منه ، لكن القبيحة تجد لها قبيحا ، وقد تجد جميلا ، فالمثل يقول حظ الجميلة عند القبيحة ، ومهما يكن ، فانني ، انا الذي في نظرك اقل من زبال او ماسح احذية ، ليس في وسعي ان اتزوج مثل الزبال وماسح الاحذية .. انني مطارد يا سيدة زكية . فهل تفهمين ما معنى ذلك ؟ هل طوردت يوما ؟ لا اقصد طراد الشباب ، ولا طراد السيد زوجك ، بل الطراد الاخر . ملاحقة رجال الامن لان لك افكارا تشكل خطرا على عرش سيدهم ؟»

قالت السيدة زكية :

– وماغي طباخة ماهرة .. هي الان في المطبخ ، لا تدعني امد يدي الى عمل تستطيعه ، وكذلك تفعل مع اختها .. اختها لا تشبهها .. تحب الراحة والنوم وقراءة المجلات .

« اختها جميلة .. وهذا هو السبب » .

– وفي المدرسة كانت ماغي مجتهدة .. لغتها الفرنسية رائعة .

« انا افكر بوجهها وساقيها »

– لماذا انت صامت ؟

– افكر بالبحر ..

– تنوي السفر ؟

– انوي الانتحار ..

خفقت كفيها على وجهها بحركة دهشة وأسف :

ـ ماذا تقول ؟

ـ انوي الانتحار ..

ـ يا ربي ! لا أصدق .. تقتل نفسك ؟ تموت ؟ ومن اجل اي شيء ؟ خلافك مع عائلتك لا يستاهل كل هذا .. فكر ..

ـ فكرت ..

ـ ستنتحر ؟

من كل بد ..

صمتت السيدة زكية لحظة وقالت :

ـ تغرق نفسك في البحر ؟

ـ في البحر ..

ـ وربما تنتحر بطريقة اخرى ، في مكان اخر .. !

قالتها وقد جعلت عيناها تدور في وقبيهما بحركة مذعورة . وعلى غير ارادة حانت منها التفاتة جهة غرفة الغسيل .

قال ابراهيم :

ـ لن انتحر في غرفتك على كل حال ..

ـ انت لن تنتحر ابدا .. قل هذا .. ارجوك ..

ـ لا استطيع الوعد .. ربما غيرت فكري وربما نفذت ما اعتزمه..

ـ اذن لن اتركك وحيدا ..

ـ وجودك بقربي يؤنسني .. تفضلي بالبقاء ما شئت . .

ـ ولكنني مضطرة لشراء بعض الاغراض .. سأذهب الى السوق، وفي غيابي سأبعث ماغي لتبقى الى جانبك . انت اليوم متضايق .. يا الهي ! لا اتصور كيف تجرؤ على قتل نفسك .. ماغي ..

قال ابراهيم بنبرة جد وهو يصطنع هيئة عبوس نافد الصبر :

ـ لا ترسلي احدا .. قلت لك لن انتحر هنا .. ولن انتحر بهذه السهولة .. سافكر في الامر .. ما قلته مجرد خاطر .. انت لا تخطر لك خواطر سود احيانا ؟

ـ يحدث .. في هذه الحال اتمنى الموت .. اسال الله ان ياخذ روحي .. ولكن الله يعرف انني غير جادة ، وانها فشة خلق لا اكثر ..

ـ اعتبري ما قلته فشة خلق اذن ..

ـ فشة خلق لا تكون هكذا .. انت مصمم .. ارى هذا في وجهك .. سابعث اليك بماغي ..

قال ابراهيم في نفسه : « السيدة تريد قلب مزاجي الى جد .. اذا جاءت ماغي لا بد من الانسحاب الى الغرفة ، واذا طال ترددها على السطح لا بد من الرحيل ، ولانني مضطر الى البقاء فسيكون علي احتمال الام والبنت .. ولئن عجزت فان ضجري خليق بان يدفعني لالقاء نفسي من الطابق الثالث » .

قال في نفسه ايضا : « ماذا لو اعتقدت السيدة زكية انني عازم على الانتحار فعلا ؟ ثم ماذا لو اخبرت ابنتها وعائلتها ومستاجريها ؟ المزحة اللعينة قد تنقلب الى جد ألعن .. الكلام مع امرأة يجب ان يكون على درجة من الحذر يقي المتكلم ورطة غير متوقعة » .

أضاف : « انا ابن كلب غجري .. لم اتقيد باصول اللعبة لانسان يختبيء وعليه ان يتكلم اقل ما يستطيع . النضال والثرثرة لا يجتمعان . السيد زكية لسان خلق لامرين : اللطف او الشكوى ، وانا اخشى اللطف واضيق بالشكوى .

قالت السيدة زكية :

ـ اذا لم يكن لديك سبب آخر فان ضجرك يعود الى هذه الوحدة القاتلة التي انت فيها . قلت لك انزل الينا . في النهار انا وماغي وايفيت ، وفي الليل زوجي وابني والمستاجرون .. تستطيع ان تتسلى قليلا . انا لا اسمح لماغي بالذهاب الى السينما بمفردها .. وايفيت متزوجة وزوجها غيور . صفة لعينة فيه مثل الكسل ، ولكنه يتسلى هو الاخر ، وهي ؟

تكلمت ايضا فاصغى اليها مبتسما . كان يرغب في ازالة الرعب الذي خلفه في نفسها كلامه على الانتحار ، لكنه لاذ بالصمت لان اهتمامها به زاد الى حد تقديم عروض مغرية ، فوق انه خشي ان يوقظ اصراره على النفي اعتقادها بانه منتحر كما زعم .

وحين ودعته وانحدرت عبر السلم الخشبي الضيق ، استدار في فيء الدالية واستلقى على ظهره متابعا التواصل مع البعد السمائي، محمولا على فراغ ركوده الذهني كأنما يحبس انفاسه وهو على سطح الماء .

* * *

بعد قليل صرت الخشبات العتيقة تحت ارجل جسم يصعد اليه. تظاهر بالنوم كيلا يقع بالحرج . انقلب على جنبه معطيا ظهره لذلك الجزء من السطح حيث ينشر الغسيل عادة ، وكان على يقين لا يدري سببه ان هذه ايفيت وليست ماغي . لعله استدل على ذلك من صريف الخشب تحت وطء جسم ثقيل . بات يترقب ان يسمع صوتا او حركة يعرف منهما الصاعد اليه ، لكنه فوجيء ان خشبات السلم صرت من جديد ، معلنة نزول الصاعد الذي توقف في فوهة السطح قليلا ثم تابع طريقه . رجع وحيدا ضجرا بحكم الوضع والبطالة . انشا يكلم نفسه بغير صوت :

« ماغي فتاة بعد كل شيء . انسانة هادئة ومنكمشة ، من النوع الذي يعرف حجمه وحقيقته ولا يغالط نفسه فيهما . غيرها كان يسعى ، بالنظرف ، باصطناع خفة الدم ، بالحركة الابتهالية الى الاله الذي يعبد ، ان يجعل السماء تمطر معجزة ، ولو من نوع مطر الصيف الذي تحمله سحابة عابرة . ماغي لا تفعل شيئا ، ربما وطنت نفسها على تقبل بتولتها ونذرتها الى قديس ما . هذه العانس قبل الاوان صارت عانسا مع ان قطار الزواج لم يفتها . اقسى ما في امرها شعورها الحاد بهذا الجفاف في عالم يمور بالماوية من حولها . حي الزيتونة وامها تحالفا على انماء شعورها هذا ، ولعلها ترفض ان ترضى بزبال او ماسح احذية .. وقطعا لم تفكر به على نحو ما فكرت امها ، لكنها تذبل كالورقة الخريفية في قلب الصيف . نسغ الشجرة لا يصلها . وهي ، في الارتواء غير المجلوب حتى في الحلم ، لا تستقصي عاطفة تبعث الدم في الجسم . انها بحاجة الى صدمة كهربائية لايقاظ الخلايا الهاجعة ، صدمة عاطفية لهز المشاعر الصدئة ، ولعلك ان تكون تلك الصدمة ، اذا لم تكن ذلك العريس ، وانت ، ايها الانساني الكلي التقدير ، غير مستعد لان تكون صدمة من هذا النوع . حب الذين انت في بيتهم محال عليك . هذا واحد من البنود غير المدونة في الدفاتر لايما مناضل سابق ، لكنها اعراف كرستها ظروف التجارب ، ومن باب السلامة ان تتقيد بها ، وان تفعل ذلك الى الدرجة القصوى ، ما دامت ماغي على هذا اليباس الذي لا أمل معه في أي عصير يرطب جوفك الملفوح بنار الحرمان الجهنمية » .

صرت خشبات الدوج كرة اخرى . صريرها اشبه بالانين . عليه ان يستدير بظهره الى فوهة السطح ، لولا انه غير متلائم مع لعبة الغفاف المكذوب ، وغير قابل للانفتاح على الزائر العزيز لعائله الاسمنتي المسور بالاحجار . السيدة زكية تراقبه ولا شك . ارصادها مشرعة العيون والاذان بعد تلك النكتة العجفاء مثل صدرها الممسوح . ولكي يتخلص من تلصص الفوهة السطحية الى يمينه ، من الافضل ان يدلف الى غرفته . هناك يقرأ او يكتب . يفعل ما يحلو له سوى التدخين ، هذه الحسرة التي لا علاج لها بسبب من ان رذيلتها الشتهاة تحتاج الى نقود لا يملكها .

نهض متثاقلا وسار باتجاه الغرفة . لم يلتفت الى فوهة الدرج برغم رغبته في ان يفعل ، وعندما استلقى على الخوان كان مطمئنا الى ان البق لن يهاجمه لو اغفى .

البق ينام في النهار . يلطو في الشقوق الخشبية وثقوب

المسامير والمفاصل . يجد في كل خشبة مسربا ، فاذا كانت الاخشاب عتيقة ، والغرفة خشبية كلها ، هيكلا وسقفا واثاثا وادوات رثة ، مخلعة ، مكسرة ، مركومة في الزوايا ، فان البق واجد سلطنة يرتع فيها مع ذراريه المتوالدة بكثرة مقرفة ، لا سبيل الى الكفاح ضدها الا بالحرق الكامل .

لقد جرب مكافحة البق بقتله سحقا . كان يمزق بعض ثيابه ويستخدمها في ذلك فتتبقع الخرقة بالدم النتن وتلوث اصابعه ، وتركمه رائحة كريهة ، زانخة ، مقززة لا تحتمل ، وعندما كان يطفيء الضوء لينام كانت تزحف عليه ارتال بقية من مختلف الحجوم ، يكفي ان يمسح رقبته او ظهره او خده لتهر منها أعداد مفزعة ، وعندئذ كان ينتعل حذاء ، ويدوسها ويخبطها باية خشبة او اداة قريبة منه .

غير ان ابراهيم ، وهو يستلقي على الخوان ، لم يقو على كبح رغبة حكية في ان يقلب طراحة الخوان ويرى الى اعشاش البق في الخشب تحتها ، في نظرة حقود عاجزة ، النظرة نفسها التي يطالع بها الذين لهم خواص البق .. لقد كان هؤلاء « البقيون » من الكثرة والتكاثر بحيث ملأوا كل مسارب الحياة الخشبية العتيقة التي تسود بلده . وهو قادر على دفع حياته ثمنا لعراك مع خصم حقيقي، خصم من اولئك الذين لا تناذى اذا نظرت اليهم ، ولا تتسخ كفاك اذا لمستهم ، وفي وسعك ، في قراع من أي نوع ، ان تقع منهم على جسد صلب لا مادة هلامية دبقة ، مصقعة ، كتلك التي لقناديل البحر .

ان كدرا ما ، مجهول المصدر ، كان يستولي عليه الان وهو منطرح على الخوان ، وقد عزاه الى تلك النكتة غير الموفقة عن انتحاره ، والى رؤية البق يمور في شقوق الخشب ، لكنه لم يجزم بأن احد هذين السببين كان مصدر كدره ، ولا كذلك خيبة توقعه ان تصعد ايفيت اليه . كان البقيون او الهلاميون من الناس يبعثون شعورا مرضيا فيه ، شعورا محزا لانه لا يستطيع شيئا تجاههم ، فهم لا يذوبون في الشمس ، ولان هذه غير ساطعة اصلا ، فهم يرتعون في ظلمة تقيهم التفسخ ، بما فيها من رطوبة حاضنة لجميع الزواحف السامة .

غادر الخوان بحركة عصبية ، مدفوعا بهياج نفسي مكبوت.راح في الغرفة وجاء . توقف . استانف السير ، تذكر كلمات السيدة زكية . لعن نفسه لانه تبسط معها في الحديث ، وقرر ان يكون لطيفا وحذرا في علاقاته مع اهل البيت .

كانت الشمس تستلقي اشعة حريرية وهاجة على البحر . كانت ساطعة ، محرقة ، حقيقية ، ولكنها لا تبلغ كل الزوايا العفنة الجارية. ان « الهلاميين » يتحجبون منها في الظل . لا يتعرضون لها وهي لا تطالهم . وحتى اذا غادروا اوكارهم ظللتهم الشماسي في الطرقات . يسيرون وعلى رؤوسهم مظلات غير مرئية . انهم بق ينتشر في الظلمة ، فاذا سطع الضوء اختفوا ، ولقد يدركون ويباد بعضهم ، لكنهم يتناسلون ويتكاثرون .

تصور ، بعدئذ ، بقة تسير في الشارع . تسير مظللة محمية . وتساءل : من الذي يبسط ظله على بقة ؟ انها بقة اكبر ولا شك . البق يحمي بعضه بعضا ، ومن العبث مكافحته بغير الحرق . ان تحرق كل الاخشاب البقية دفعة واحدة ، وتدع النار تتعالى كما في ناقلة بترول تشتعل في عرض البحر .

لاب في الحيز الضيق للغرفة الخشبية التي يعكس سقفها التوتيائي وقدة الشمس المتلظية في الخارج ، ولكي يستروح النسمات التي تسعف في تبريد جسمه المحرور ، هرع الى النافذة ومد رأسه باتجاه البحر ، وشرع يتابع باخرة ترسل دخانا وهي تخرج من الميناء الى الافق المائي الذي تنتهي عند تخومه حدود الرؤية . ظل يتابع الباخرة حتى صارت نقطة سوداء مستطيلة وبعيدة ، وتفرق الدخان الذي تنفثه وتصاعد ليلتحق بالغيوم الرقاق التي تتوزع في الفضاء المائل جهة الافق .

ان للباخرة رحلة تتوقف خلالها في موانيء كثيرة ، وللانسان ايضا رحلة يتوقف فيها في موانيء كثيرة . وكما الباخرة تذهب وتجيء ، في رحلة المبتدأ والمنتهى ، وتمر بموانيء عديدة مرات عديدة ، كذلك الانسان يفعل . عليه ان يقوم برحلة الحياة ، وان يمتلىء باشياء ويفرغ اشياء ، أن يأخذ ويعطي ، ان يكون نافعا على نحو ما، وقد آمن هو بهذه الضرورة ، ولاجلها عمل ويعمل ، تشرد وينتشرد، ولسوف يتابع الطريق ، اذ لا طريق غيره ، ما دام لا يريد ان يكون بقة تلطو في ثقوب الاخشاب العتيقة في النهار لتخرج فتمتص الدماء في الظلمة .

وقال في نفسه : « ها انا في مرفأ جديد من رحلة الحياة المتعددة المرافيء . انني ارسو بانتظار الابحار . ارسو مضطرا حتى تسنح فرصة السفر ، وحتى تعود الجريدة التي اعمل فيها الى الصدور ، وتكف الملاحقة بحقي . حكم حسني الزعيم كان انقلابا مفاجئا لم يتوقعه احد ولم تعرفه سورية قبل الان .. ترى الى اين يصل الوضع ؟ أتكون هذه بداية المسبحة ، وتكر حباتها بعد ذلك بالتتابع ؟ هذا الانقلاب رد فعل للنكبة ، فما هي ردود الافعال التالية على رد الفعل هذا ؟ » .

اختفت الباخرة نهائيا عن ناظريه . ابتلعها المجهول المائي الذي تمخر عبابه الان ، وهي تتهادى تحت السطوع الشمسي لرحلة الصيف العذبة في البحر . كل شيء هادىء حولها ، السماء والماء والفضاء الرحب الذي يتداح على مد النظر . وكل شيء هادىء حوله . حي الزيتونة ينام في النهار ويستيقظ في الليل ، والابنية الشاهقة ذات الشرفات كالرفوف ، والنوافذ كالعيون المبعثرة في جسم هيكل بالغ الضخامة ، يجللها صمت مريب ، تعب مثل كل الاشياء في المدن الكبيرة ، وعند العصر يستفيق الحي رويدا رويدا . يتمطى ، يتثاءب ، وينفض النوم عن عيون ارهقها السهر لتعاوده من جديد . وفي الليل تسطع الاضواء وتعلو الضجة ، وتعمر الطرقات ، وتبدأ حياة جديدة ، حافلة ، كالكرنفال في اكثر مواسمه اقبالا .

فجاة ، على السطح المجاور ، ظهرت فتاة . ارتد الى الداخل كيلا تراه . تكون عادة في ثياب البيت . تنشر الغسيل او تجمعه او تسقي الازهار . في الاصائل فقط تبدو في زينة كاملة وهي تتنزه، وتطل على الشوارع والابنية المجاورة . ربما تراقب مرور شخص ما بعينه ، شخص عزيز قضت النهار تفكر به . ما اسعد هذا الشخص اذن . سيمر وينظر اليها فتلتقي العيون في نظرات مخطوفة ومبهجة. يخفق قلب لقلب ، وتبوح العيون ، وتومىء حركات الايدي في تلويحة كخطف البروحة ، ثم يذهب ويجيء وتنتقل هي من طرف الى طرف على السطح ، وينتظم الجسدين سلكان من ارتعاشة الحب والشباب ، الارتعاشة التي تختزل كل فرحة اللقيا وكل شوقها ايضا .

كانت النزهات التي تقوم بها هذه الفتاة على السطح ، وتمتد حتى الغروب ، مبعث راحة نفسية لابراهيم . في هذه الحال كان ينسحب الى غرفته حتى لا يعكر عليها هناءتها وحريتها في التصرف . وبكثير من المودة كان يتابع حركاتها التي تشبه حركات فراشة في حقل هي وحدها السارحة المارحة فيه . لم يكن يحس

تجاهها بأي احساس سيء . براءتها لجمت نوازعه ، وظهورها على السطح كان انسا له ، اذا افتقده يوما استشعر بنقص هام ، وبفراغ ووحشة .

وليس جمالها وحده ، بل عذوبتها ايضا ، كانت تملأ نفسه بالرضى . انها اشبه بطالبة ثانوية ، نضجت قبل الاوان ، لكنها احتفظت بكل مرح وعفوية الطالبة ، وقد ذكرته باخته ، وبشيء عزيز عليه الى درجة انه كان مستعدا الى اغماض عينيه بنشوة وهو يستعيد صورتها في خاطره . كان يكفيه ان تكون جارته ، لكي يتذوق حلاوة انسانية ذات نكهة خاصة ، كتلك التي تنشأ بين انسانين غريبين ومن بلد واحد . وقد رغب اكثر من مرة ان ينفحص هذه العاطفة التي نشأت لديه تجاه الفتاة ، فردها حينا الى وضعها الطبقي المماثل لوضعه كما يظهر من بساطة ثيابها ، وردها حينا اخر الى كونها من عائلة عمالية بدليل البسة العمل الزرق التي تنشرها على السطح ، وعزا هذه العاطفة الى جو البراءة التي تند عن حركات الفتاة وسكناتها،وفي عالم حي الزيتونة المزيف والموبوء،تمصرف النظر عن هذه التحليلات التي لا طائل تحتها ، واكتفى بهذه المتعة الروحية التي يبعثها ظهورها ، وجهد كيلا تراه ، بعد ان لفتها وجوده في الغرفة ، وبعد أن التقت عيناهما مرة ، فظهر على الفتاة الحرج والضيق .

« انا مسافر عابر ـ قال في نفسه ـ ومن كان في مثل وضعي ، لا يطمح الى اقامة علاقة من آي من الذين يصادفهم في المرفأ الذي يمر فيه . يكتفي بشراء باقة زهر ، ويعود الى متابعة السفر . صحيح انه مكوثي هنا طال ، وها هي ثلاثة شهور تنقضي وانا اعلل النفس بالعمل او العودة ، ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق . لقد رفضت الصحف التي قصدتها ان تستخدمني ، ودار النشر التي حاولت التعاون معها اعطتني كتابا للترجمة وانا أعمل فيه بصعوبة ، وفي كل صفحة علي ان اعود الى القاموس مرات عديدة ، مع قلة ثقتي من انطباق المعنى ، بين ما اترجمه وبين الاصل ، وهذا ما يسبب لي الانزعاج ، ويمنع اندماجي في العمل ورغبتي فيه » .

انهت الفتاة عملها على السطح وهبطت الدرج كما صعدت . مسكنها في الطابق الاول ، وقد عرف ذلك من اطلالة عبر النافذة ، وسيكون عليه ان ينتظر المساء ، لتصعد ثانية في نزهتها المعتادة اكثر الايام .

استانف ابراهيم عمله في ترجمة الكتاب ، لكنه سرعان ما اطرحه وعاد الى النافذة ، يحدق في السماء الصافية ، سابحا مع غيوم صيفية رقيقة تنحدر محمولة مزقا على اجنحة ريح رخاء الى الافق الطحيني الذي يرسم دائرة عريضة عند ملتقى الماء بالسماء .

* * *

ومضت الايام على هذا النحو ..

مضت كما كانت وكما ستكون طوال اقامته هنا ، سوى أن زيارات الست زكية الى السطح قد تكاثرت . تجاهلت موضوع الانتحار الاول . قام في ذهنها ان ابنتها ماغي قد وقعت على العريس المطلوب، لذلك فهي لا تفتأ تتحدث عنها ، وتطري قناعتها وصبرها ونظافتها وجلدها في الشغل ، وبنفس الحرص تتجنب الحديث عن ملاحتها .

وبدفع منها ولا شك ، زارت ابنتها ماغي السطح اكثر من ذي قبل . كانت تنثر وهي تتقدم من الدالية التي يجلس فيها ابراهيم ، كأنما تطأ ارضا وعرة ، وكانت تسلم في حياء واطراق ، وتصمت قبل ان تساله عن اي شيء في بالها ويكون فاتحة للحديث، فاذا رد عليها بكياسة ، ودعاها الى الجلوس اسدلت فستانها على ركبتيها المضمومتين ، وقعدت خفرة ، كأنما تدخل اول امتحان في اقامة علاقة مع شاب .

لقد كانت ، فيما يبدو من كيانها المتهدل ، تعاني من شعور حاد بالنقص بصفتها انثى ، ومن شعور اكثر حدة بصفتها قبيحة ، انها اكبر من اخيها الوحيد ، ولا شك ان السيدة زكية ، عندما رزقت بهذا الولد المدلل ، المفتون بكل ممثلات السينما وكل فنانات حي الزيتونة على السواء ، قد مارست كثيرا من التمايز بينها وبين شقيقها ، وادخلت في روعها انها اقل شأنا من الصبي ، وانه يفوقها حظوة وقدرة وشأنا في كل شيء ، وجاءت الدمامة الطبيعية لتعمق هذا الاحساس وتصادر قابلية المواجهة عندها .

وفي شيء من الاسى لحاله وحالها معا ، كان ابراهيم يرنو اليها مشفقا ، مستغربا لعبة الام في ان تفرض علاقة بينهما ، لمجرد تقديرها انه في وضع سيء ، يمكن معه أن يقدم على الزواج من ابنتها هذه التي تدفعها الى هذا الموقف دفعا فتعمق احساسها بالاحباط . ان السيدة زكية ، بطبيعة العلاقة النفعية لافراد عائلتها ، والطبيعة النفعية للحي باكمله ، تتصور ان تلك هي كل عملية للحياة وكل طابع السلوك الاجتماعي ، وان مجرد عوز الانسان كاف لان يدفعه الى قبول ما لا يقبل لو كان في وضع افضل ، وهو لا يلوم الفتاة ، ويعذر الام ، لكنه يرفض عقلية التاجر الصغير هذه ، في تصريف سلعة معطوبة للتخلص منها بأي شكل .

لقد آلمه ذلك ، لكنه كان واقعا ، وضد هذا الواقع بكافح ، ولكم تمنى لو استطاع ان يشرح المسألة للفتاة ، وان يدعوها الى رفض تصرف امها ، والى النظر للحياة بعين اخرى .

واذ تطول جلسة ماغي ، ويطول الصمت ، رغم المجاهدة على قطعه ، كان يؤنب نفسه على هذا التصرف الاخرق ، ناسيا هو الاخر ان السبب في ذلك لا يعود اليه ولا اليها ، وانما الى فقدان اللغة القلبية المتبادلة بينهما .

وكانت شقيقتها المتزوجة تصعد الى السطح مرة او مرتين في اليوم ، واذ ذاك يبتسم كل منهما للاخر دون ان يسمح ابراهيم للعلاقة ان تتقدم بالاتجاه الذي يخشى ان يتورط فيه ، ودون ان تسعى الفتاة الى دفع العلاقة بهذا الاتجاه الخطر . لقد كان بالنسبة اليها مشروع صهر للمستقبل ، وهذا ما لجم تلك العاطفة التي كانت قمينة ان تتكشف عنها حياله .

الاصائل وحدها كانت تحمل اليه العزاء والنسيان . تميل الشمس الى الغروب ، ويبترد الجو ، والبحر ازرق رحيبا حافلا بالنداءات يتجلى لناظريه ، والحي تعاوده الحركة ، ويكفيه ان يذهب ويجيء على السطح ليستمتع ببهجة الاخرين ويشارك فيها عن بعد .

وفي الاصائل كانت تصعد فتاته الى السطح الاخر المجاور ، فينسحب الى غرفته ، ويتابعها منها بكثير من الشغف والراحة ، وقد درجت ، في الاونة الاخيرة ، على قطف وردة تحملها في يدها ، ورآها مرة تشكلها في شعرها ، استجابة لصديقها الذي يمر في الشارع ، او ربما ارضاء لنزعة التجمل التي تعبر عن نفسها بهذه الطريقة المائعة التي كان يهواها ويحبها الى درجة الخدر .

على ان فتاته فاجأته ذات ضحى بحركة كشفت له عن ان حيله في التخفي لم تكن تنطلي عليها . كانت تعرف انه هناك ، وانه يراها ، ويتابعها ، ولم تكن منزعجة من هذا كله بالشكل الذي تصور .

ناداته من طرف السطح فجأة . كان يعمل ولم ينتبه الى صعودها، وقد حسب ، لاول وهلة ، ان النداء موجه الى سواه ، لكن الفتاة كانت تنظر اليه عبر النافذة وتخاطبه مباشرة .

ـ انت ، يا سيد ، لماذا تفعل هذا ؟

اقترب من النافذة وقد بوغت بالسؤال وخافه :

ـ انا ؟

ـ نعم انت ..

ـ وماذا افعل ؟

ـ الست الذي يسكن هذه الغرفة ؟

فكر قبل ان يجيب ، مستغربا ان تحقق معه على هذا النحـــو، وفي اول تخاطب بينهما .

ـ نعم ، انا الذي يسكن الغرفة ، ماذا تريدين ؟

قالها بجفاء ، مستنكرا برغمه ان يندخل احد في شؤونــــه او يفرض نفسه وصيا عليه .

ـ لماذا تلقي بالنفايات الى الزقاق تحت نوافذنا ؟

ـ انا لا القي بأية نفايات .. انت مخطئة .

ـ لست مخطئة .

ـ وما هو دليلك ، هل رأيتني افعل ذلك ؟

ـ انا لم ارك ، ولكن من غيرك الذي يلقي بعلب التبغ الفارغة ، واعقاب السكاير ؟ كان يجب ان تلقيها في سلة المهمـــلات لا زقاق الجيران .

بهت لهـذه التهمة . لم يكن يصدق ان هذه البراءة تعمد الـى هذا الظن . وهو الذي كان ينطوي لها على اقصى المودة ، بجبهـــه بهذه التهمة الظالمة الان .

تفرس فيها ليكتشف ما وراء كلماتها . حاول ان يحزر ما وراء لعبتها هذه ، ثم قال بجدية وحزم :

ـ هل انت واثقة مما تقولين ؟

ـ كل الثقة !

ـ واذا اثبت لك انك على خطأ ؟

ـ كيف ؟

ـ انا لا أرمي بعلب التبغ واعقاب السكاير الى الزقاق لسبب بسيط ، هو انني لا ادخن ..

ـ بلى تدخن .. رأيتك تدخن على السطح ..

ـ ربما حصل ذلك .. ولكنني الان لا ادخن .

ـ كيف ؟ تركت التدخين ؟

تنهد وهو يثبت نظراته فيها . كان يعز عليه ان يقــــول لها الحقيقة ، ولكنه مضطر لاثبات براءته فقال بأسى :

ـ لا .. لم اترك التدخين .. ولكنني ..

وسادت فترة صمت ، اغتصب بعدها الكلمات ليقول :

ـ لا املك ثمن التبغ ، صدقيني ، ولهذا لم ادخن منذ شهـر واكثر .

واستدار مبتعدا ، شاعرا بالاساءة الى كبريائه بهذا التصريح الذي كان عليه ان يحجم عنه . غير انه ، بعد ظهر ذلك اليـــــوم بالذات ، عندما عاد الى غرفته من جولة في البرج ، وجد فـــي ارض الغرفة علبة تبغ ، القتها جارته من النافذة ولا شك .

رفع العلبة وقبلها . داعبها بمودة وحنان . فتحها فتناول سيكارة واشعلها ، ثم استلقى على الخوان شاعرا ان في هذه الدنيا علاقات انسانية رائعة ، قد لا يتوقعها المرء ، ولا يعرفها الا عند التعبير عـن نفسها ، وبذلك تترسخ ، على مر الايام ، هذه الثقة بالانسان ، الكائن الذي يجعل من المشاركة ، في اية صورة جاءت ، نسيج راحـــــة للمتعبين .

ومن جديد تناول علبة التبغ وقلبها . قال في نفســه « هـــذه ليست رسالة ، ولكن كم من الكلمات الطيبة تحمل ؟ وهي ليست وردة كالتي شكلتها في شعرها ذلك الاصيل ، ولكن في معناها شذى الورود جميعا .. وربما لم تفكر الفتاة بكل هذا ، وقد تكون فعلتها اقرب الى الاحسان ، لكنه احسان ليس من باب الصدقة .. انـه نضح عاطفة ، وكـم في هذا الوجـود من عواطف كريمـة ما تـزال خبيئة » .

قرر ان يشكرها عندما يلتقيان عبر السطحين ، وفكر بالكلمات التي سيقولها ، وبالطريقة التي سيقولها بها ، لـكنه ابدا لم يفعل . لم يتسع له الوقت ، ففي اليوم التالي كان يجمع اشياءه ليرحـــل، فقد انتهى عهد حسني الزعيم في دمشق ، وانتهى معه مبرر وجوده على السطح في بيروت .

دمشـــق


## دار الاداب تقـــــدم

### محمد الفيتوري

فـي مجموعته الشعرية الجديدة

# ابتسمي حتى تمر الخيل

« انهم جميعا ، يحترقون في ذات النار السماوية.. يحترقون حبا وغضبا وغربة واحتجاجـا . يحترقون تماما.ثم لا تبقى منهم الا الكلمة العبق ، الكلمة الومض،الكلمـة الايقاع .

محمد الفيتوري أحدهم .

غير ان بعضهـم يتميز عـن بعضهم الاخر بقدرتـهعلى أن يسمو بمستوى عذابه وابداعه ، حتـى ليكـاد يصبح عذابه نبويا ، وابداعه رسالة . عندئذ لا بدّ ان تكون العناصر الاساسية التي تتشكل منها حياته،وحياة الانسانية جمعاء ، قد انصهرت فيـه وصهرتـه ، قدتداخلت فيه وداخلته الى حد الامتزاج والفناء .

تنصهر المادة في الروح ، والجسد في العـذاب ، والثورة في الحب ، مثلمـا تنصهر الطينة في النار ، والخالق في مخلوقاته ، والعاشق في بهاء المعشوق . الى جبال الحب الصوفي في لبنان ، وهو يعيش ذات ومنذ رحيله عن غابات الحزن الوحشي في افريقيا،وانسانه الاسود العاري اكتسى زيًا حضاريا ،واستبدل التجربة الانسانية الكبرى ، يتطور فيها وتتطور معه . الاتهـام . بقطعة الحجر ، وحفنة الطين ، سلاح الوعـي وقبضةهو محمد الفيتوري كما اعرفه ، وكما اراه » .

انه في حالة تبلور دائمة نحو الصفاء الكلي : ذلك هو محمد الفيتوري كما اعرفه ، وكما اراه » .

امينة غصن

صدر حديثا